سيميائية الدم في واقعة الطف

الأستاذ الدكتور
عبد الباقي الخزرجي
الجامعة المستنصرية ـ كلية الآداب
dr.abdulbaqi.badr@gmail.com

التوطئة:

الشمس الساطعة آية من آيات الله والقمر آية من آيات الله والكواكب آية من آيات الله خلقها الله تعالى لتنمح النور والضياء لأهل الأرض وتكون حجة ودليلا على عظمة الخالق وجمال صنعه.

والحديث عن الإمام الحسين عليه السلام يبدو للوهلة الأولى كمن ينقل التمر إلى هجر ولكن من اجل أن نبحر في عالم الحسين عليه السلام حيث السهول الخضراء والبحار الزرقاء والأشجار المثمرة والحدائق المعطرة ينبغي علينا أن نعلم جيدا أن عالم الحسين عليه السلام عالم المثل والقيّم والسمو والأخلاق، عالم التضحية والإيثار، عالم الدروس والعبر، عالم الإباء ورفض الضيم والذل.

التمعت في ذهني فكرة من واقعة ألطف وأحببت أن أكتب فيها لعلي أقدم شيئا يسيرا من كلمة أو عبارة أو جملة فيها فائدة لنفسي ولمن يسمع أو يقرأ كلماتي وفكرتي تولدّت من تأمل عبارة (عندما ينطق الدم). فوجدت أن دم الإمام الحسين عليه السلام لم يسكت منذ ألف وأربعمائة سنة؛ بل تحوّل إلى زمان مطلق ومكان مفتوح وممتد عبر العصور والدهور، تكلم بكل أنواع الكلام وأساليبه فالإمام الحسين عليه السلام قبل استشهاده كان يتكلم مع القوم بوسيلة واحدة وهي النطق والكتابة ولكنه بعد استشهاده عليه السلام تكلمت جميع جوارحه وأعضائه وتكلم دمه الشريف وأصبح رمزا ودليلا عن قصة كاملة تحكي مظلومية الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء، ومن سوف تتحرك فكرة البحث في الدراسة عن كيفية نطق الدم في كربلاء الفداء والشهادة.

وأقول إن نقاط الالتقاء أو التقاطع تنمو بين الأشياء عندما توجد نقاط إشعاع تنطلق

من قبل الأفكار الأساسية لتلك النقاط التي تستند إليها تلك التقاطعات أو تلك الالتقاءات وعندما يريد أن يذهب المرء إلى التوجس من أفكار معينة، يحاول أن يسقط عليها عمليات انزياحيه فكرية تدفع بهذه الأفكار إلى غير دلالاتها الوضعية. أو بالأحرى حتى إلى دلالاتها المجازية. ومن هنا حاول بعض الباحثين ممن اهتم بدراسة الفكر الحسيني؛ ودراسة المرجعيات الثقافية التي ينتمي إليها هذا الفكر المشرق، إذ ينطلق الإشعاع ألنوري الأول لهمن رؤية أساسية مفادها أنّه شعّ من حجر الرسالة، وتغذّى من فم الرحمة، ونهل من عبق .

ولأنّ الفكر الحسيني فكر قائم على ثوابت عقائدية؛ وليست متغيرات يتمكن الزمن أنّ يتعامل معها على وفق متطلباته الضرورية.

وهذا الثبات كان نابعا من ثوابت التراث الإسلامي لا من متغيراته. ولأنّ هناك جدلية قائمة في التعامل مع التراث الفكري الإسلامي سميت بجدلية الإتباع والتحول والتي تنصّ على أن التراث العربي في نفوس العرب بوصفه تراثا مقدسا ينقسم على قسمين:

قسم ينتقل عبر الزمن بوصفه تراثا يحمل قدسية في نفوسهم لا يحق لأحد في مجرد التفكير بتغييره أو حتى التجاوز عليه لا من قريب ولا بعيد؛ وهذا التراث يتجسّد في مجموعة الأصول والتقاليد والأعراف التي يتوارثها العرب كابرا عن كابر، وهي الأصول والتقاليد والقيم النبيلة السامية التي استقرت في نفوس العرب؛ حتى جاء الإسلام ورسخّ هذه الثوابت ومنحها بعدا فكريا وعقائديا وأكد ضرورة المحافظة عليها، وجعل منها رؤية سلوكية أعطت العرب بعدا روحيا واجتماعيا كبيرا في نظر الأمم الأخرى.

وقسم آخر كان يتغير مع تغير الوقت والزمن وتحرك على وفق مصالحه الشخصية ومكتسباته ومنافعه المادية فهم يعيشون مع كل العصور والملوك ويتلونون مع كل متلون لا يحملون قيما ولا مبادئ ينعقون مع كل ناعق أشكالهم تنتمي إلى العرب ولكنهم في قلوبهم وأفكارهم لا ينتمون العرب لا من قريب ولا بعيد.

ومن هنا تولدّت النواة الأولى للصراع بين من ينتمي إلى الخط الأول ومن ينتمي إلى الخط الثاني، ولاسيما بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى عليه أفضل الصلوات والسلام والذي كان قائدا سياسيا ودينيا في آن واحد. وبعد ذلك حدث الانشقاق الأول وافتراق

الخط الديني والخط السياسي في سقيفة بني ساعده. وبقي هاجس الإحساس بالظلم في نفوس الكثير من المسلمين طيلة مدة حكم الخلفاء وإلى أن جاء حكم الإمام علي عليه السلام وعادت القيادة السياسية والدينية لجميع المسلمين على يديه وعاشت الدولة الإسلامية في عدالة كانت نموذجا مشرقا لعدالة السماء.

وعاد الانفصال على أشدّه من بعد استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام إذ تصدى بنو أمية عن طريق المكر والخديعة والاحتيال وتسلموا مقاليد الأمور السياسية في البلاد وأرادوا بالبطش والقوة أن يجمعوا المرجعية الدينية لهم كذلك فضلا عن المرجعية السياسية فعملوا على تصفية الإمام الحسن عليه السلام ونجحت بنو أمية بالتخلص من الإمام الحسن عليه السلام ولكنها فشلت في التخلص من الإمام الحسين عليه السلام.

نعم ربما من الناحية النظرية والعسكرية انتصر يزيد على الإمام الحسين عليه السلام جسدا لا روحا، ولكن حتى جسد الإمام الحسين عليه السلام خالدا ورمزا مقدسا على مر العصور وتحول دم الإمام الحسين عليه السلام صوتا صدحا هزّ عروش الظالمين وضعضع أركان الحكم الأموي.

وكان للدم الكربلائي عطرا ملأ الدنيا وتحوّل إلى أوكسجين يتنفسه عشّاق الحسين عليه السلام ويعيشون فيه ويضحون لأجله ويتكاثرون جيلا بعد جيل حتى أضحى أمة كاملة تمتد في مشارق الأرض ومغاربها والكل تنادي يا حسين ودم الحسين هو من يجيب ودم الحسين أخذ دلالات ودلالات وتنوعت أبعاده وتنوعت أفكاره ودم الحسين أصبح نشيد المظلومين والمضطهدين في الأرض ودم الحسين أصبح رمزا لكل شيء له علاقة بالحسين عليه السلام وها هو ينطق بدون لسان ينطق ويسمع دويه عبر الزمن وعبر العصور وعبر الدهور هذه الدراسة تبحث في كيفية تحول دم الحسين عليه السلام إلى آية من آيات الله عليه السلام وكيف أن جسد الحسين عليه السلام كانت آية تتكلم من كل مكان مقدس في جسده الشريف رأسه ومنحره يديه وجروحه وحسده الطاهر صلوات الله عليه .

ومن هنا نتلمس قيمة الدم الحسيني الذي قدّمه في مواجهة الدنيا وملذاتها من الشهرة والجاه والسلطة والمكانة التي كان يتم عبها صاحب التضحية لكنه أراد أن يقدّم للعالم أجمع وللمسلمين خاصة.

رؤية شاملة ومتكاملة لنظرية الشهادة والتي عدت رمزا من رموز الثبات والاستقرار

في الفكر الحسيني إذ أصبح المنتمي إلى هذا الفكر ينطلق في جميع سلوكياته من خلال نظرية القياس المتكاملة والتي وضع حجر الأساس لها الدم الحسيني دم الشهادة في كربلاء ونصل إلى حقيقة مفادها أنّ جميع الثوابت التي خرجت منها أخذت بعدا معنويا وعمقا فكريا وصل بها إلى درجة اليقين.

وأخذت بعدا ماديا أمتدّ بها عبر زمن مفتوح جعل أيقونة الحياة السرمدية والتي لا حدود لها إلا ما يشاء الله.

السيميائية: الكلمة آتية من الأصل اليوناني (سيمنيو)؛ والذي يعني العلامة، و(لوكز) والذي يعني خطاب. والخطاب هنا لا يعني خطبة في معناها الأكثر تداولا؛ ولكن تفكير وحجاج في موضوع معين[١].

إذاً يمكننا أن نتصور علما يدرس حياة العلامات في كنف الحياة الاجتماعية[٢].

والعلامات التي تكون الإرساليات الأساسية للتواصل الإنساني كيف ما كانت هذه الإرساليات سمعية، بصرية، شمية، حركية، لمسية، ذوقية.

ولو جئنا إلى معنى العلامة في القرآن الكريم لوجدنا ما يأتي:

جاءت لفظة الآية في القرآن الكريم بمعنى العلامة وقد وردت هذه اللفظة في القرآن الكريم(٣٨٢) مرة موزعة على النحو الآتي:

(٢٨٢) وردت في السور المكية و(١٠٠) مرة وردت في السور المدنية، وجاء ذلك في (٤٢) سورة مكية، و(١٦) سورة مدنية[٣].

ومن هذه الإحصائية يمكن لنا أن نستنتج سبب كثرة ورود اللفظة في السور المكية وهي تعني العلامة والبرهان والدليل والمعجزة وكأني بأهل مكة من العرب كانوا بحاجة كبيرة إلى الأدلة والبراهين ليقتنعوا بالدين الجديد ويؤمنوا بما جاء به الرسول الأكرم عليه أفضل الصلوات.

وسوف أقوم بمتابعة بعض النماذج من النصوص القرآنية والتي لها علاقة بموضوع الدراسة؛ ومن ثم أعمل على ربط هذه النماذج مع واقعة الطف وما جرى فيها من أحداث

وإشارات وعلامات لها علاقة بالأفكار التي تقدمها هذه الدراسة.

قال تعالى في سورة ال عمران/٤١ ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيٓ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾.

الخليل: الآية: العلامة والآية من آيات الله والجميع الآي وتقديرها (فَعَلَة).

قال (آيتك) أي علامتك(٤).

وقال تعالى في سورة البقرة/٧٣ ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

أي: عجائبه يقال فلان آية من آيات الله أي عجب من عجائب الله. الأصل في معنى الآية العلامة الواضحة وهو متحقق في كل ما تطلق عليه كلمة آية فسمي خلق الكون آية لأنه علامة على قدرة الله تعالى، وسميت العبرة آية لأنها علامة على معاني العظة والاعتبار.

وقيل لكل جملة في القرآن بين فاصلتين آية علامة على ما تضمنته من الأحكام وآداب ونحوهما(٥).

أما في النصوص التفسيرية فأجمع المفسرون على معنى الآية هو: العلامة ومنهم الطبري(في قوله تعالى: سئل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة))(٦).

ويعني الآيات التي جاء بها موسى عليه السلام: من فلق البحر والظلل من الغمام والعصا واليد البيضاء وغير ذلك(٧).

وكذلك الطبرسي والقرطبي والألوسي وأوضح الطوسي الآيات البينات ما ذكرها الله تعالى من قلب عصا موسى حيّة، وفلقه البحر وتغريق عدوه، وتطلبه الغمام، وإنزال المن والسلوى، وذلك من آيات الله تعالى التي آتى بها بني إسرائيل فخالفوا جميع ذلك وقتلوا انبياءه ورسله وبدلّوا عهده ووصيته إليهم(٨).

وقال الطوسي في قوله تعالى ﴿رَبِّ اجْعَل لِّيٓ آيَةً﴾. الآية: العلامة وإنما سأل العلامة والآية لوقت الحمل الذي سأل ربه ليتعجل السرور به فجعل آياته في إمساك فلم يقدر أن يكلم الناس إلا إيماءً؛ من غير آفة حدثت في لسانه. وبذلك يكون المراد قال جبرائيل: (آيتك) أي

علامتك ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾.

وأعلم أنّ زكريا عليه السلام لفرط فرحه وسروره بما بشّر به وثقته بكرم ربه وإنعامه عليه أحبّ أن يجعل له آية تدل على حصول العلوق وذلك لأن العلوق في بداية الأمر لا يظهر فقال ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ فقال تعال على لسان جبرائيل ﴿آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾. وأن الله حبس لسانه ثلاثة أيام فلم يقدر أن يكلم الناس إلا رمزا(٩).

وفي ذلك فائدتان:

أولاً: أن يكون ذلك آية على علوق الولد.

ثانياً: أنه تعالى حبس لسانه عن أمور الدنيا وأقدره على الذكر والتسبيح والتهليل ليكون في تلك المرة مشتغلا بذكر الله تعالى.

وأيضاً هذه الواقعة مشتملة على المعجزة من وجوه عدة:

الوجه الأول: إنّ قدرته على الكلام والتسبيح والذكر والعجز في الوقت نفسه عن التكلم في امور الدنيا هو من أعظم المعجزات.

الوجه الثاني: حصول المعجز في تلك الأيام المقدرة مع سلامة البيئة واعتدال المزاج.

الوجه الثالث: إخباره متى حصلت هذه الحالة فقد حصل الولد ثم إن الامر خرج على وفق هذا الخبر يكون من المعجزات(١٠).

أما صاحب تفسير الميزان فيرى في قوله تعالى ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾.

الرمز والإيماء يكون بالشفتين وقد يستعمل في الإيماء الحاجب والعين واليد، ووقوع هذه الآية في ولادة يحيى عليه السلام من وجوه المضاهاة بينه وبين عيسى عليه السلام فأنها تضاهي قول عيسى لمريم عليها السلام بعد تولده وذلك في قوله تعالى من سورة مريم /٢٦ ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَانِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾.

وسؤاله من ربّه أن يجعل له آية والآية هي العلامة الدالة على الشيء وهل هو يستدل به على البشارة، إنما هي من قبل ربّه وبعبارة أخرى هو خطاب رحماني ملكي لا شيطاني أو

لأنه أراد انّ يستدل بها عن حمل امرأته ويعلم وقت الحمل.

والجواب إنّ الأنبياء لعصمتهم يجب عليهم أن يعرفوا الفرق بين كلام الملك ووسوسة الشيطان ولا يجوز أن يتلاعب الشيطان بهم حتى يختلط عليهم طريق الإفهام[١١]. ومس الشيطان للأنبياء والتعرض لهم وارد في القرآن الكريم فأنّ الشيطان وإن تمكن أن يمس الأنبياء في أجسامهم أو بتخريب أو أفساد فيما يرجونه من نتائج أعمالهم في رواج الدين واستقبال الناس أو تضعيف أعداء الدين كما يدل على ذلك قوله تعالى من سورة ص/٤١ ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾. وقوله تعالى من سورة الحج /٥٢ (وما ارسلنا قبلك من رسول ولانبيّ إلا إذا تمنىّ ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يُلقى الشيطان ثم يُحكم الله آياته والله عليم حكيم). وقوله تعالى من سورة الكهف/٦٣ ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾[١٢].

ولكن هذه وأمثالها من مس الشيطان وتعرضه لا تنتج إلا إيذاء النبي؛ وأما مسّه الأنبياء في نفوسهم فالأنبياء معصومون من ذلك[١٣].

هذا هو النموذج الأول للدراسة على ورود لفظة الآية في القرآن الكريم وكيف كانت تعطي معنى العلامة والدليل والبرهان والحجة وتعطي معنى المعجزة ومنها سوف أنتقل إلى نموذج آخر من القرآن الكريم وجاء في سورة مريم عليها السلام وكيف أنها استخدمت الإشارة من دون أن تتكلم في آية من آيات الله ومعجزة من معجزاته التي أغنت عن الكلام مع قومها الذين كذّبوها وتعجبوا من صنعها وهاجموها بوحشية فامتنعت عن الكلام وأكتفت بالإشارة إلى رضيعها واستجابة لطلبه هو منها كما سنوضح في النصوص الآتية من القرآن الكريم فقد جاء في سورة مريم /٢٦ ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَانِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ هذا الخطاب موجه من نبي الله عيسى عليه السلام إلى أمه وهي خائفة قلقة لا تدري كيف تتصرف جراء الأحداث التي تعاقبت عليها فكأن نبي الله قال لها لا تتكلمي مع أحد من قومك وقولي إني نذرت صياما للرحمن بأن لا أكلم أحدا من البشر وأكتفي بالإشارة فقط ومن جاء جوابها لتساؤلات قومها المثيرة والجريئة والتي أحرجتها أمام الناس حين قالوا لها من سورة مريم/٢٧ ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ

﴿بَغِيًّا﴾ فكان جوابها من دون نطق أو كلام بل بالإشارة فقط وبحركة أصابعها باتجاه الرضيع الذي تحمله وكان هذا كلام ونطق كامل المعنى حيث تسلّم المتلقي وهم بنو اسرائيل .

معنى الإشارة ومحتواها وهي أسألوا الرضيع الذي أحمله معي وكان رد فعلهم عنيفا مستنكرا انكارا عظيما واجابوها باستهزاء واستخفاف واستهجان كيف تطلبين منا ذلك وهل هذا معقول أو من المنطق ما تطلبين أن نفعله وتجسدّ ذلك في قوله تعالى من سورة مريم /٢٩ ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾.

ويقول صاحب تفسير الميزان في ذلك: إشارتها إليها إرجاع لهم إليه حتى يجيبهم ويكشف عن حقيقة الأمر، وهو جري منها على ما أمرها به حينما ولد بقوله ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ ويقول المهد السرير الذي يهيأ للصبي فيوضع فيه وقيل المراد بالمهد في الآية هو حجر أمه وقيل المكان الذي استقر فيه(١٤).

وبعد دراسة علم العلامات في القرآن الكريم ومن خلال هذه النماذج التي تقدمت وبيان مفهوم العلامة وعلاقتها بعلم السيميولوجيا وكيف إنّ العلامة أغنت عن العبارة وأغنت عن النطق وعن الكلام والكتابة وأضحت دليلا وبرهانا يتسلم الكلام ويرجع الجواب وأنها عملية تداولية بين المرسل والمتلقي وصورة متكاملة الأبعاد لأفهام من يريد أن يصل إليه قصدية الخطاب.

وإذا ما رجعنا إلى واقعة الطف وما جرى فيها من احداث ومنذ زمن ما قبل المعركة والذي أستخدم فيه الإمام الحسين عليه السلام كل وسائل التواصل الإنساني مع القوم سواء عن طريق المراسلات والكتب أو عن طريق الخطب والنصح المباشر في ساحة المواجهة. ولم ينفع كل ذلك لأن أرض كربلاء مكتوب ومقّدر عليها ما جرى في علم الغيب؛ أرض كربلاء أرض الشهادة والرمز؛ كربلاء الآيات والمعجزات، كربلاء العلامات والدلائل الواضحات، كربلاء أرض الشمس؛ تلك البقعة المباركة من الأرض والتي لا ينطفئ ضياؤها ونورها ليلا ونهارا؛ ففي النهار تشرق فيها شمس الله تلك النعمة الالهية لتضيء تلك البقعة المقدسة من الأرض؛ وفي الليل تشرق فيها شمس الولاية شمس الحسين عليه السلام؛ تلك الشمس الإلهية المتوقدة في نفوس وأرواح المؤمنين .

فلذا يحق لي تسميتها (أرض الشمس). والرابط بين الشمسين والمصدر لهما واحد هو الله سبحانه وتعالى.

كربلاء المكان والزمان، كربلاء الإنسان والنبات، كربلاء الدم والشهادة؛ وأي دم الحسين عندما ينطق ويصرخ عاليا؛ لأجل هزّ عروش الظالمين وأركانهم في مشارق الأرض ومغاربها؛ ويمتدُ الصوت عبر الزمان والعصور وينسج لوحة الخلود في عبق السنين؛ لأن الصوت يرتبط بالجسد وينتهي بنهايته؛ إلا صوت الحسين عليه السلام، كان مرتبطا بالله وبقيم السماء ومن هنا أكتسب خلوده وديمومة بقائه عبر الزمان والمكان وعبر الأجيال المتعاقبة، دم الحسين عليه السلام أضحى لوحة وجع وبكاء تعزف لحن الوفاء على مرّ الدهور في مسيرة حزن سرمدية لا نهاية لها .

دم الحسين عليه السلام السبيل الذي ربط الحسين عليه السلام بالقرآن في قوله تعالى من سورة الشورى/ ٢٣ ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾.

دم الحسين عليه السلام امتداد لدم الرسول الأكرم محمد عليه أفضل الصلوات والسلام وامتداد لدم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ودم العترة الطاهرة من أهل البيت عليهم السلام؛ ودم كل المظلومين والمعذبين في الأرض من بعده تجسدّ في المكان وفي الزمان أيقونة خالدة لكلّ من يبحث عن العدالة والحق ومحاربة قوى الكفر والضلال.

عندما نطق الدم في كربلاء؛ نطق الطُهر والنقاء والعفة والكرامة والصفاء، نطق القرآن الكريم في قوله تعالى من سورة الأحزاب/٣٣ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

إذن دم الحسين عليه السلام نطق عبر القرآن الكريم؛ نطق عبر جبرائيل؛ نطق عبر الرسول الأكرم محمد عليه الصلوات والسلام ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.

ومن هنا لا نستغرب أو نتعجب من حصول معجزات وحالات خارقة للعادة مع استشهاد الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء.

فقد ذكرت الروايات والأخبار عن شيعة أهل البيت والجمهور؛ حدوث معجزات

خارقة للعادة والتي كشفت عن علو مكانة الإمام وعظمة شأنه وارتباطه بالله تعالى

ومنها إنّ الإمام الحسين عليه السلام أخذ شيئا من دمه ورمى به إلى السماء ولم يسقط منه قطرة واحدة؛ وكذلك فعل مع رضيعه عبد الله؛ ورمى به إلى السماء؛ وهو يقول: (اللهم لا يكون هذا الدم عليك أهون من فصيل ناقة صالح)[١٥].

وأعتقد إنّ الإمام الحسين عليه السلام عندما فكّر أن يرمي الدم إلى السماء فكأني به يعطيه ويقدّمه قربة إلى الله تعالى ومحبة وفداء ومن جانب آخر كأني به يشكو غربته وما فعل القوم به وبأهله إلى الله ويطلب الثأر منه فقط بحق هؤلاء القوم الظالمين؛ وأنّه جعل الله صاحب الثأر ومن هنا جاءت تسمية الإمام الحسين عليه السلام (ثأر الله وابن ثأره) وقيل السلام عليك يا ثأر الله وابن ثأره.

وهنا تحضرني رواية مهمة لها علاقة وثيقة بالموضوع وهي رواية نادرة لابن قولويه عن الإمام الصادق عليه السلام مخاطبا جده الإمام الحسين عليه السلام وهي ((وضمّن - أي الله تعالى - الأرض ومن عليها دمك وثأرك).

ويرى أحد كبار علماء الطائفة آية الله العظمى السيد صادق الشيرازي[١٦] إنّه لم يرد مثل هذا التعبير في الأدعية والزيارات المروية عن أهل البيت بمثل ما ورد هنا بحق الإمام الحسين عليه السلام؛ وقد حار العلماء في تفسيرها ومنهم العلامة المجلسي رضوان الله عليه الذي نقل الزيارة في كتابه بحار الأنوار.

ويقول: الظاهر من عبارة الإمام الصادق عليه السلام في قوله (وضمّن أهل ومن عليها) هو أنّ الله سبحانه وتعالى ألقى على الأرض ومن عليها مسؤولية دم الحسين عليه السلام؛ لأنّ ذلك الدم الطاهر أُريق عليها فأصبح بذمتها وذمة من عليها فصارت هي ومن عليها الضامن والمسؤول عن دم الحسين عليه السلام.

ويرى جماعة من العلماء[١٧]: بما أنّ الإمام الحسين عليه السلام أستشهد على الكرة الأرضية فإنّ الله تعالى جعلها كلها مسؤولة عن تعذيب قتلة الإمام الحسين عليه السلام وخاذليه أينما دفنوا وفي أية بقعة منها؛ وهذا هو ضمان الله على الأرض؛ وهو مائز ميّز الله تعالى به الحسين عليه السلام وخصيصة خصّه بها وكشف الإمام الصادق عليه السلام؛ اما كيف تنفذ الأرض هذا التكليف

الإلهي فهذا ليس من شأننا معرفته؛ وهي تعرف تكليفها ونحن يكفي أن نعرف في المقام أنّها مكلفة وأنّها تؤدي تكليفها وذلك في قوله تعالى من سورة فصلت /١١ ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.

وأرى أنّ من معاني النصّ الشريف المروي عن الإمام الصادق عليه السلام؛ أنّ الله تعالى حمّل الأرض مسؤولية دم الإمام الحسين عليه السلام أمر فيه جانبان: الجانب الأول: يتعلق بالأرض نفسها والثاني يتعلق بمن يسكنها من الأنس والجن والشجر والحجر والماء والكواكب وسوف تثبت ذلك الدراسة فقرة فقره.

أما الجانب الأول المتعلق بالأرض فله وجهتان الوجهة الأولى هي: إنّ الأرض خلق من مخلوقات الله تسمع وتطيع فيكون بذلك التكليف لها للانتقام من قتلة الإمام الحسين عليه السلام أينما كانوا وأينما هربوا وأينما حلّوا، ومن الجانب الآخر يتوجب عليها احتضان الأجساد الطاهرة لأهل البيت عليهم السلام وجعلهم أمانة طاهرة نقية في حجرها وإلى يوم القيامة يوم الفصل والحساب.

أما بالنسبة لمسؤولية من يسكن الأرض من البشر فيقع عليهم الواجب من شقين الشق الأول يتجسّد في الانتقام من قتلة الإمام الحسين عليه السلام ومحاربتهم والتصدي لهم هم ومن يخرج من أصلابهم ومن يتبعهم إلى يوم القيامة والعمل على فضحهم وكشف زيفهم وأباطيلهم ويتجسد ذلك في جميع من يحاربون خط أهل البيت عليهم السلام اليوم.

أما الشق الثاني من المسؤولية فيقع على البشر في وجوب المحافظة على الخط الحسيني وأهدافه وقيمه وما قام من أجله الحسين عليه السلام والانتماء إليه والدعوة له وإحياء عاشوراء عبر العصور وعبر الأجيال وإلى يوم القيامة يوم الحق والعدل.

أما بالنسبة الى علاقة مخلوقات الله الأُخرى في الارض ومن الكواكب وغيرها في واقعة الطف ودم الحسين عليه السلام نذكر بعض الروايات عن ذلك: يروى انهُ لما استشهد الامام علي بن الحسين عليه السلام نادا رافعاً صوتهُ (هذا جدي رسول الله قد سقاني بكأسهِ الاوفى شربةً لا اظمأُ بعدها ابداً) وهو يقول العجلَ فأم لك كأساً مدخورة[١٨].

وأما عن نطق الدم في كربلاء وحصول المعجزات هو ما يروى عن حديث رأس

الحسين عليه السلام بعد استشهادهِ وظهور الانوار المضيئة منه والى السماء[١٩]. كذلك ان منحر الامام الحسين عليه السلام نطق وتكلم بعد الاستشهاد وأجاب الامام زين العابدين السجاد عليه السلام عندما تحدث مع الجسد الطاهر.

أما عن علاقة التراب بواقعة كربلاء ودم الحسين عليه السلام فيما يروى عن النبي الاكرم عليه الصلاة والسلام: (ان التراب الذي دفعهُ النبيُ الاكرم لأم سلمة أصبح دماً عبيطاً عند مقتل الحسين عليه السلام[٢٠].

وأما الكواكب ومنها الشمس التي انكسفت في وسط النهار وظهرت النجوم في منتصف النهار واخذت تضرب بعضها بعضاً[٢١].

وفضلاً عن ذلك أظلمت الدنيا ثلاثة ايامٍ بلياليها واسودت[٢٢]. حتى ظن الناس انهُ يوم القيامة، وأمطرت السماءُ دماً[٢٣].

وبالنسبة للأرض وحجرها فقد اشارت السيدة زينب عليها السلام عقيلة الطالبيين الى ذلك في خطبتها في الكوفة بقولها: لم يرفع حجر في بيت المقدس ولا في غيرهِ الا ووجد تحتهُ دماً عبيطا وكما وضع الرأس الشريف في قصر الكوفة سالت الدماءُ من حيطان القصر[٢٤].

أما بالنسبة للأشجار وعلاقتها بواقعة الطف وقتل الامام الحسين عليه السلام فيروى ان شجرة "ام معبد" نبع الدم من ساقها خلال مقتل الامام الحسين عليه السلام تلك الشجرة التي اثمرت وأورقت ببركة وضوء الرسول الاكرم في طريق هجرته من مكة الى المدينة[٢٥].

وأخيراً ظهرت الحمرة في السماء لمدة شهرين او ثلاثة أشهر حيث مكث الناس كأنما تلطخت الحوائط بالدماء ساعة طلوع الشمس حتى ترتفع حزناً على الحسين عليه السلام[٢٦].

وخلاصة الدراسة عندما هدأ روع الحسين عليه السلام وسكن انينهُ وانقطع صوتهُ عن البوح وفارقت روحهُ الحياة في رمضاء كربلاء عندئذ نطق كل شيء في جسد الحسين عليه السلام رأسهُ الشريف ومنحرهُ المبارك واعضاؤه وجروحه حتى غدا لوحة الوجع والحزن والبكاء الناطقة لوحة التواصل مع الاخر من دون كلام.

أصبح الحسين عليه السلام دمعة المظلومين في الدنيا وهكذا نطق دم الحسين عليه السلام عندما صمت الحسين عليه السلام.

الخلاصة:

التمعت فكرة الدراسة عبر المفهوم السيميائي لمفهوم (عندما ينطق الدم) وتحركت من خلال فضاء زماني نيّف على الألف وأربعمائة سنة؛ ومن ثم تحوّل إلى زمان مطلق ومكان مفتوح امتد عبر جسور المحبة والعشق لجميع الأجيال.

واستندت الدراسة إلى نقاط الالتقاء أو التقاطع والتي تنمو بين الأشياء عند تواجد نقاط إشعاع تنطلق من الأفكار الأساسية لها؛ وإنّ المرء عندما يتوجس من أفكار معينة يدفع بها إلى دلالات مجازية جديدة عبر عمليات انزياحيه فكرية؛ وإنّ دراسة الفكر الحسيني المشرق دراسة سيمائية تعتمد تحوّل اللغة التداولية إلى لغة إشارية من خلال فك شفرات ورموز تلك اللوحات السيمائية لذلك الفكر المستند إلى ثوابت عقائدية وليست متغيرات؛ وهذه الجدلية قائمة في التعامل مع التراث الإسلامي والتي سُميت بجدلية الإتباع والتحوّل؛ والتي تنص على أنّ التراث العربي في نفوس العرب يقسم على قسمين: قسم يحمل قدسية في التعامل مع التراث بحيث لا يحق لأحد أن يفكّر في تغييره أو مجرد التجاوز عليه، وقسم يتغير مع الوقت ويتحرك على وفق المصالح والمكتسبات المادية .

وخلُصت دراسة البحث إلى أنّ البعد السيميائي لواقعة كربلاء الحسين عليه السلام تحوّلت أيقونة تحكي قصة الأحداث عبر العلامات السيمائية؛ إذ نطق كل جزء من كربلاء بعدما هدأ وسكن روع الحسين عليه السلام حتى غدا لوحة الوجع، وعلامة الحزن، وإشارة البكاء الناطقة، لوحة التواصل مع الآخر من دون نطق أو كلام، حتى أصبح الإمام الحسين عليه السلام دمعة المظلومين في الأرض ونطق الدم عندما صمتت كربلاء.

Abstract

Shine study the idea of cross-semiotic concept of the concept (when the blood utters) and moved through time space more than thousand and four hundred years . And then it turned into a time of absolute and open place spread across the bridges of love and adoration for all generations.

The study was based on convergence and points of intersection and that grow between objects when the presence of radiation points proceed from the fundamental ideas .

Though one apprehensive when certain ideas are pushed into new metaphorical implications across intellectual operations , Although the study Husseini thought semiotic study relies turning deliberative language to the sign language through an indicative decipher codes and symbols of those paintings physiognomic to that based on the fundamentals of ideological thought, not variables .

This is the dialectic in dealing with the Islamic heritage, which was named the dialectic of followers and transformation , Which states that the Arab heritage in the hearts of the Arabs divided into two sections : section holds the sanctity of dealing with heritage so that no one has the right to think of change or just overtaking it , and section change with time and move on according to interests and material gains .

The study concluded that the search semiotic dimension to the incident of Karbala, Hussein, turned icon tells the story of events across the physiognomic signs , every part of Karbala pronunciation when Hussein calmed down , and he will be Panel ache, and a sign of grief, and the signal-speaking crying .

Even Imam Hussein, became the tear of the oppressed in the land and pronunciation of blood when Karbala be silent .

هوامش البحث

(١) ما هي السيميولوجيا: برنان توسان ص: ٩.

(٢) المصدر نفسه ص: ٩

(٣) المعجم في فقه لغة القرآن وسر بلاغته: ٤ / ٣٨٩

(٤) المصدر نفسه: ٤ / ٣٩٠

(٥) المصدر نفسه: ٤ / ٣٩٤

(٦) تاريخ الطبري: ٢ /٢٣٢

(٧) المعجم في فقه لغة القرآن وسر بلاغته: ٤ / ٣٩٤

(٨) المصدر نفسه: ٤ / ٣٩٥

(٩) المصدر نفسه: ٤ / ٣٩٨ - ٣٩٩
(١٠) المصدر نفسه: ٤/ ٣٩٩
(١١) الميزان في تفسير القرآن: ٣ /٢٠٧
(١٢) المصدر نفسه: ٣ /٢٠٨
(١٣) المعجم في فقه لغة القرآن وسر بلاغته: ٤ / ٤٠٠
(١٤) فاجعة ألطف: ص: ٨٣
(١٥) كفاية الطالب: ص: ٤٣٢
(١٦) مقاتل الطالبين :ص: ٧٧
(١٧) تاريخ دمشق: ٢٢ / ١١٧
(١٨) الكامل في التاريخ: ٤/ ٨٠
(١٩) المصدر نفسه: ٤ / ٨٠
(٢٠) السنن الكبرى للبيهقي: ١٢ / ٢٦٥
(٢١) مجمع الزوائد: ٩ / ١٩٧
(٢٢) تاريخ دمشق: ١٤ / ٢٢٦
(٢٣) السنن الكبرى للبيهقي: ١٢ / ٢٦٥
(٢٤) الثقات لأبن حيان: ٥ / ٤٨٧
(٢٥) مقتل الحسين للخوارزمي: ٢/ ٩٨ -١٠٠
(٢٦) تاريخ الطبري: ٤ / ٢٩٦

قائمة المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم

٢- تاريخ دمشق: أبو القاسم علي بن الحسين المعروف بابن عساكر (٥٧١هـ) دار الفكر - بيروت - لبنان - ١٩٩٥م.

٣- تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك): محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) الطبعة- ٤ - ١٩٨٣م. مؤسسة الاعلمي - بيروت - لبنان.

٤- الثقات لابن حبان التميمي ألبستي (ت٣٥٤هـ)، ط١ عام ١٣٩٣هـ - دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد - نشر دار الفكر.

٥- السنن الكبرى: أبو بكر احمد بن الحسين البيهقي (ت٤٥٨هـ) طبع دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد - نشر دار الفكر.

٦- فاجعة ألطف: أبعادها - ثمراتها - توقيتها - السيد محمد سعيد الحكيم - مؤسسة الحكمة الإسلامية - ط٣، عام ٢٠١٠ م.

٧- الكامل في التاريخ: لابن الأثير (ت٦٣٠هـ) دار صادر- بيروت- ١٩٦٥م.

٨- كفاية الطالب في مناقب آل أبي طالب: محمد الكنجي القرشي الشافعي (٦٥٨هـ) الطبعة ٢ - عام ١٩٧٠م.

٩- ما هي السيميولوجيا: برنار توسان - ترجمة: محمد لطيف - دار إفريقيا للشرق - ط٢، عام ٢٠٠٠م.

١٠- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: علي بن أبي بكر الهيثمي (ت٨٠٧هـ) ط١، عام ١٩٨٨م.

١١- المعجم المفهرس للألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي - منشورات ذوي القربى، ط٢.

١٢- المعجم في فقه لغة القرآن وسر بلاغته - تأليف قسم القرآن بمجمع البحوث الإسلامية - بأشراف الأستاذ محمد واعظ الخراساني.

١٣- مقاتل الطالبين: أبو الفرج الأصفهاني (٣٥٦هـ) ط - ٢ - عام ١٩٦٥ م - النجف الأشرف.

١٤- مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي (ت٥٦٨هـ) مطبعة الزهراء - النجف الأشرف - ١٩٤٨ م. تعليق الشيخ محمد السماوي.

١٥- الميزان في تفسير القرآن - للعلامة السيد محمد حسين الطبطبائي- دار المجتبى - إيران - قم، ط١، ٢٠٠٤ م- ١٤٣٥هـ.